الفصل التاسع

الحياة الجديدة

اختي في بلدتنا في لبنان ترملت منذ سنوات ولا ولد لها ، وقلما كنت أكاتبها لأني كنت مطمئناً عليها إذ هي تعيش من ريع أوزاقنا هناك . فبعد تفكير طويل كتبت لها الخطاب التالي .

« أختي العزيزة مريم

« لم أكتب اليك بعد مقاطعتي لك مدة طويلة . لم أكن ناسياً اياك وإنما مشاغلي المعنية كانت مشغولة عن هذا الاهمال . وكنت مطمئناً عليك لأني واثق بأن ريع أملاكنا يكفيك أن تعيشي في بحبوحة من العيش . والآن وقد بلغ ابني جبران أول الشباب أرسله اليك لكي يقضي بعض الربيع عندك ثم يصطاف . وان شاء فيتم الطول عندك . وقد أكتب له أن يدخل كلية بيروت الاميركية وإن سمحت الفرصة فأتبعه في أول الصيف .

« وقد تستغربين أني لم أكتب لك عنه قبل الآن لأنه كان كل الوقت في حضانة جدته أم والدته لأن أمه لم تمكث معي سوى مدة قصيرة وقد أخذها الله الى رحمته في مدة نفاسها . وتذكري اني كنت لك في ذلك [كذا] لم أكتب لك في هذا الشأن تتوهمي في كتبت لك]

« وقد ماتت جدته بالأمس فرأيت أن أبعثه تحت رعايتك . ولا ريب أنك تسرين به جداً . وتعطفين عليه كأنه ابن لك . وقد زودته بالمال اللازم

« أقبلك قبلات أخ مشتاق .

أخوك يوسف انطاكي

بعثت بهذا الخطاب الذي كذبت فيه على أختي الى لبنان ، وانا شاعر اني اتقلص عني أهوال الهموم وأثقال المسؤوليات ، أخذت أحس أني فررت من ساحة حرب لا يفرغ الجهاد منها .

شعرت أن ذلك العجل الذهبي الذي صاغه هرون لبني اسرائيل لا يشبع شهوة ولا يروي غلة . ولكن ليس في هذا العالم موسى يحطمه .

إن الطير الذي بقي على سطح الكرة الأرضية بعد طوفان نوح يشبع عشرين ضعفاً من ملايين سكانها . ولكن ملايين الذهب وملايين نائبة الورق لا تشبع إنساناً واحداً

لا يستطيع شخص واحد أن يستهلك من خير الأرض أكثر من حاجة إنسان . ولكن إنساناً واحداً يستطيع أن يبتلع كل ثمرات العالم

يمكن أي إنسان أن يستوفي حاجته من خيرات الأرض بلا قتال . ولكن انساناً

واحداً يقفي أن يقاتل العالم كله لكي يجمع خيرات الأرض كلها في يده

وداعاً أيها القطر الذي عاشت أم الملك الفائمة إليه وهي تنتمي دمه ودمنا نسب

* * *

وصلت الى بلدنا تعلقني ابن يوسف العنابي أخ عمي مريم ، واستقبلتني عمتي أمتي (عمتو كعنوة الأم) بالفضة بضعة أيام ، وأنا أتنفس الصعداء وأنت النم الذي حُشك في صدري في حياتي السابقة . وما لبثت ان سمعت إشاعة وفاة أبي (أبو) يوسف العنابي منتحراً كما قدّرت . فقضيت مع عمتي أيام مناحة أليمة على المرحوم المغفور له والدي (نصيبي) .

بعد حين جاءت سلمى الزعفراني وابنتها الى البلدة بعد غياب طويل ، عشرين سنة ونيّفاً . ولم يسعني إلا ان أسلم عليها باسم جبل ابن يوسف العنابي . فعزتني بأبي (أبي بي تنعي) وأظهرت عطفاً عظيماً عليّ

وما انقضى شهر وأنا أنعم بعطف سلمى باعتبار أني ابن صديقها ، ودورا بينهما حتى ورد الخبر المفجع عن وفاة زوجها المسكين سليم غورد ، فتفجعنا عليه وبكيناه بكاء مرّاً

لله من القدر المجنون . لما كانت سلمى مقيدة بزواج كان يوسف العنابي حر يتزوجها غراماً ويتبدله . ولما حل قيدها وصارت حرة تلاشى يوسف العنابي من الوجود .

وما لبثت سلمى أن تأسست لرحيل الى [illegible] لكي تصبح مركز [illegible] في [illegible] الطلاوين وفي أشعة [illegible] وحولت [illegible] الى جنينة معاشة في [illegible] الدراسة [illegible] ما دامت في ذلك المحور الكئيب . فأبيتها كل الإباء . فقالت : أن أباك تسلك . فدمت أقل شمماً وأنفة منه . وأنا دورا أقطر دمعاً أسف طفلنا النراق بنت العشرة الفصيرة التي تمازجت فيها أخلاقنا وميولنا وأمانينا .

عزمت أن أدرس الطب بغية أن أكون ذا مكانة سامية في نظر سلمى وابنتها دورا

أصبحت أنظر الى الماضي كأنه حلم هنيء وان الحقيقة في حياتي هي هذا الحاضر . حقاً اني صرت أرتاب في حياتي الماضية ، ولا سيما لأن ذكرياتي فيها صارت تتراءى لي كالظلال الضعيفة أو كأنها كانت أضغاث أحلام .

نقيت منجرحاً في شاطئ [illegible] أوالي ضحيتين في جسم واحد [illegible] واحد [illegible] الخاص الخمس [illegible] الضحيتين .

[illegible] كان فراق سلمى [illegible] يحركك في سجية الشعر وينير في خاطري [illegible] فسكبت كل لاعج طبعها في [illegible] بهم وأتغزل بجمالها ، وأبث لوعتي غرامي وأتلو سحري على وتاري فيتمشون له فيه من رقة وطلاوة وحسن بيان وعمق معاني

وفيما كنت أدرس الطب قدّمني أحمد رمزي نعيم الوجيزي لقريب الأستاذ حنين رسمي صاحب جريدة « المصري الحرّ » في قاعرة مصر اذ كان هذا في بيروت حينئذٍ لشأن له . وهذا استدرج أشعاري ومقالاتي التي نشرت في بعض الجرائد والمجلات ، وجعل يزيّن لي صناعة القلم . ثم جعل يرغبني في التحرير في جريدته حتى استهواني أو سحرني بأسلوبه ومنطقه الى أن وافقته . ثم مضيت معه الى مصر لكي أكون موظفاً في تحرير جريدته وأترك دراسة الطب . فكانت أول غلطة غلطتها في حياتي الثانية وسببها ميلي للشعر والأدب

وما انقضت بضعة أشهر حتى ملأت مركزي الأدبي بل طغت عليه فوق جاسه . وفهمت من بعض القراء أن الجريدة ظهرت بعد انتظامي في سلك محرريها بثوب قشيب وأخذت منزلة خاصّة في عالم الصحافة . وكانت بعض الجرائد والمجلات الصغيرة تتنافس ببعض نبذاتي وأشعاري .

وبضيعة الحال تعارفت وأكثر الرسلاء من طريق جرائدهم الأخيرة وكنت أتجشم في بعض الخاطر كل يوم حيث تتلاقى الأحاديث والأشعار وتتطارح النكات والملح ومع إني كنت أصغرهم سنّاً وأكثرهم قلة وتعذرين في حياتي الثانية ، صارت لي بينهم منزلة فوق مني . وقد راق لي ذلك المقام بينهم ، ولم أسلك إلاّ على عدولي عن دراسة الطب

وريثما في تلك الأحوال الخاصة جرى أن ألّفت كتاباً في موضوع اخلاقي أخلاقي جعلت عنوانه . — « سكّرات الحياة وبقظاتها » . وعرضته على بعض الكتبيين لكي يطبعه أحدهم وينشره فأعرضوا قائلين : ان سوق الكتب غير المدرسية كاسدة وألاّ يروج في سوقها إلاّ الروايات والمزليات . ورضي بعضهم أن يطبعه من غير أن يدفع شيئاً للتأليف . فأسفت كل الأسف على بوار العلم والأدب في الشرق العربي . فرغبت أن أطبعه على نفقتي لاعتقادي أنه سيروج اعتماداً على شهرتي . وكنت أظنها شهرة طبقت الخافقين ، وهي شهرة خيالية لم تتجاوز المقهى الذي كنت اجتمع فيه مع بعض الزملاء .

لله من الغرور . خلق الانسان من تراب ، فهل في التراب غرور ، فنشأ معه في جبلته ؟ وقالوا انّ داء الغرور .

واستنزف طبع الكتاب من المال ما في قلته ما لم تكن لي طاقة على دفعه كله ، فبقيت مديوناً بقسم منه للمطبعة . وأودعت نسخاً منه في المكتبات بقصد بيع « بالعمولة » فلم أستطع أن استرد من المكتبات إلاّ المناطة « لا الثمن ولا الثمن » . فصرت أوفي الدين من مالي . هكذا كان أجر القلم في سوق الأدب حينئذٍ . فمنذ ذلك الحين شرعت تقلي بغض الأدب

تضعف ولا سيما لأن الجرائد لم تبلغ بعد مكانة الجرائد العالمية .

مشى العامان وصدرت جريدتنا يومية بعد أن كانت تصدر مرتين في الأسبوع فتضاعف العمل والتعب وتضاعف المجهود . ولكن الأستاذ خليل وامق صاحب الجريدة لم يضاعف الأجر حتى ولا زاده أية زيادة . فبقيت ساكتاً عنه اعتماداً على ضميره . ولكن يظهر أن الضمائر لا تتحرك اذا لم يحركها محرك . وكنت أخجل أن

ألمح الى هذا الموضوع .

وأخيراً تقدمت الى الأستاذ خليل وامق بكل رقة واستعطاف ، والتمست منه زيادة ماهيتي فأبى أن يزيد بحجة أن اصدار الجريدة ضعفين كلفه من مصاريفها ضعفين

عدت في مثل يأس وندمت لأني عدلت عن دراسة الطب وضيعت بضع سنين من عمري الثاني في التحرير الماحل . آه لو درست الطب لكنت الآن طبيباً حراً وربما نلت توفيقاً كبيراً .

ورد اسم الراوي في هذه الرواية مرة يوسف النعماني وهو ويوسف الصابي شخص واحد — اقتضى التنبيه

الفصل العاشر

خيبة وبالها

ركان من حسن حظي أن المنزل الذي كنت أسكن فيه كان ملك ثري كبير يدعى خليل الرحباني، وهو يختلف عن سائر الأثرياء بثقافة عالية، وخصال شريفة ليست إلا في القليل منهم. وما اتصلت به صلة الساكن مع المالك حتى اشتدت الصلة بيننا الى صلة الصديق بالصديق. فكنا نقضي بعض أوقات الفراغ معاً في منزله، أو في متنزه، أو في مقهى معتبر. وما لبثت الصداقة أن استحكمت بيننا وأصبح كأنه مستشاري الذي أعتمد عليه لما كنت أرى فيه من أصالة الرأي والإخلاص.

في ذات مساء دعاني السيد خليل للسهرة عنده، وابتدأ الحديث معي بالسؤال: كيف أنت وجريدة المصري الحر.

قلت: يلوح لي أني معرّض لخطر جسيم بسببها. فقد ورد في خطاب اليوم بلاغ ينذرني به كاتبه بالقتل اذا كتبت شيئاً ضد اليهود. فاستصوبت أن يوجه في هذا الخطاب وأن يهدد صاحب الجريدة لأنه المسؤول الوحيد. فهو يكتب وهو ينشر كل أسبوع مقالاً ضافياً عن احتيال من احتيالات اليهود المالية كالبورصة والتجارة بالسندات والنسيئة والتقسيط والربى والتأمين وما اليه. فإن غير ذلك فعرضت هذا الخطاب على الأستاذ خليل رامح صاحب الجريدة. فقال: لا تهتم به بتاتاً. ولم يشأ أن أقدمه للنيابة. ولا أدري لماذا هذه الحملة التي يحملها على اليهود.

قال الرحباني: أنا أدري. فهو يبتغي أن يستدرجه اليهود الماليون بمبلغ كبير من المال أو باشتراكات كثيرة بالجريدة وبإعلانات كبيرة بدل سكوت.

قلت: ما ذنبي اذا كان خليل رامح صاحب الجريدة وهو يكتب.

قال: ذنبك أنك تكتب مقالات جيدة في الجريدة تجعل القرّاء يتهافتون إليها. وباتساع انتشارها تقوى دعايتهم. فقيمة ما يكتبه الأستاذ خليل رامح كدعاية ضد اليهود أو دعايتكم تتوقف على انتشار الجريدة الذي فعلك العامل الأول والأفضل فيه. لذلك أقول لك يجب أن تكون لك حصة فيما يتقاضاه خليل من اليهود ولك أن تطالب بها.

فضحكت وقلت: لو كان الأستاذ خليل يرى أن لي حقاً بمقاسمته مكافأة اليهود لأجاب رجائي يوم توسلت إليه أن يزيدني أجرة لقاء زيادة عملي.

قال: سمعاً يا عزيزي. اني لي اتصالاً ببعض اليهود الذين يتأثرون جداً مما تكتبه جريدة المصري الحر ضدهم. وهم يتأهبون

الآن [illegible] وضدك [illegible] على أن يشتروها [illegible] رشّ لا تقوم [illegible]

فاستشرت أن [illegible] المؤامرة وأن لا أشتري فقلت : أشرى كم يدفعون ثمن الجريدة

قال : عرضوا [illegible] آلاف جنيه وخليل رامح نصف ستة آلاف . وسوف يدفعونها صاغرين

قلت : وما رأيك ؟ هل يحسون قلمي من ضمن الصفقة

قال : كلا بل هم يقصدون أن يكسروه أولاً . والثمن الذي سيقبضه خليل رامح هو ثمن جميع أقلام الجريدة ، فعليك ان تطالب خليلاً بحصتك قبل أن يعقد البيع . قم اذهب إليه الآن .

* * *

بعد تردّد طويل تجرأت وقصدت الى خليل في منزله وخاطبته في الامر . فأنكر أن اليهود يساومونه . وقال إنه لا يعقد البيع إلا إذا تعهدوا أن يدفعوا لي مكافأة خمسة من عدة خدمتي في الجريدة ، أو أن يبقوني في وظيفتي بمرتب كبير من ماضيني

بيعت الجريدة واشتراها اليهود . وقبض خليل رامح ستة آلاف جنيه ثمناً لها . وبقيت أحرر في الجريدة ، وقد أضافوا إليها ثلاثة محررين وترئسهم يهودي . وما لبثت أن شعرت في مقالي أنهم لا حرية لي . وفي آخر الشهر أعطيت راتبي مع خطاب إقالة . فسألت عن المكافأة فقيل لي : طالب بها خليل رامح الذي خدمته .

وذهبت الى الأستاذ خليل أنكي له . فاستشاط وقال : يدفعون المكافأة رغم أنوفهم . اكتب لهم خطاب تهديد بقضية

بعد أخذ ورد وإحالة بين البائع والشارين واستشارة محام ضاعت المكافأة ، وما كان خليل رامح أكرم خلقاً من اليهود . والمحامي قطع أملي لأنه ليس معي عقد اتفاق ضد واحد من الطرفين .

هدأت بعض حين . خمدت آمالي . غامرني اليأس ، عاتبت خليل رامح عتاباً مرّاً لأنه أغراني حتى جعلني أترك كلية الطب ، وأضاع عليّ مستقبلي كله . فتنصل مني بخشونة وبلؤم ، يا له من أفاقيّ شرير .

* * *

في إبان هذا التقوط قابلني صديقي الرحالي فرويت له ما حدث بيني وبين خليل رامح وأصحاب الجريدة الاجداء اليهود .

فقال : ليس خليل رامح رجلاً شريفاً يستحق من كلية الطب ، ثم يخسك حقك . هذا عمل رجل أناني لئيم .

قلت : إن هذا الرجل كافر لا دين له . ولا يخاف الله .

قال : أي الله تعني ؟

قلت : الله ؟ وهل للعباد غير الله واحد ؟

قال نعم هناك الله ذو ثلاثة أقانيم . والله

آخر واحد لا شريك له . والله ثالث كان رب الهنود يحارب آلهة أخرى. وهناك آلهة أخر للمجوس والهنود والصينيين وغيرهم فأيهم هو الله خليل رامح ؟

قلت : أليست هذه الآلهة جميعاً إلهاً واحداً هو الله رب العالمين .

قال : نعم . لو جرد الناس آلهتهم من الخرافات التليدة في عقائدهم لظهرت لهم إلهاً واحداً . ولكن هذه الخرافات هي التي فرّقت الأديان . فأي دين تعني ؟

قلت : أليست كل الأديان تأمر بالخير وتنهى عن المنكر ؟ هذا الرجل لا يفعل خيراً ، بل يفعل منكراً ، إذاً فلا دين له

قال : ألا تعرف أناساً ينتمون الى دين ثم يأتون المنكرات .

قلت : بلى . ولكن هؤلاء كاذبون في دعوى التديّن بأي دين . فهم بلا دين .

قال : أوَلا تعرفه أحداً من الناس يجاهر بالإلحاد ثم يفعل خيراً ، وقلما يأتي منكراً ؟

ففكرت هنيهة وقلت : أي والله ، أعرف ملحدين لا يكتمون إلحادهم كأنهم لا يريدون أن يغشوا الناس، وسلوكهم سلوك أهل الصلاح .

قال : إذن فلا تعتمد في اعتقادك بفضائل الناس على ما يبدو لك من تديّنهم . ولا تسيء الظن ببعض الناس اعتماداً على ما تعلمه من كفرهم .

قلت متحمساً : تريد أن تقول إن الملحد لا يأتي من الدين أو من التديّن ما يأتي حافظ أداً يأتيه الإنسان غير المتديّن

قال المبادىء الأدبية غريزة في الإنسان الاجتماعي ، وهذه الغريزة هي ما نسميه الضمير . فالإنسان الاجتماعي يفهم الحق والصلاح سواء كان مؤمناً أو ملحداً ولكن شهواته تطمس الضمير أو تضعفه فيقترف ما تقتضي شهواته لا يقتضي ضميره .

قلت : ماذا تعني بغريزة الإنسان الاجتماعي .

قال : أعني أن هذا الحيوان الإنساني لما صار إنساناً وشرع يتحضّر صار اجتماعيّاً متكافلاً . أي صار كيانه متوقفاً على التعاون مع اخوانه وقومه . وهذا التعاون لا يحدث إلا إذا اتفق الإخوان أو القوم على أن يجعلوا الحق أساس تصرفهم . فيعدلون فيما بينهم . وينصفون بعضهم بعضاً ، ويصدقون ويكونون أمناء مستقيمين الى غير ذلك من مقتضيات الحق . وعلى تعاقب الزمان أصبح هذا التفاهم بينهم ، والتعامل بمقتضاه غريزة في خلقهم الاجتماعي . وبالتالي صار من يخالف حتى اذا خالف أحدهم هذه الشريعة عاقبته الجماعة . اذا اطلعت على عادات القبائل المتوحشين والهمج وتقاليدهم تجد أن الصدق في المعاملة بينهم عادة فيهم ، وهم لا يعرفون إلهاً ولا يدينون بدين إلا هذه الشريعة العرفية ، وحرصهم عليها هو الضمير الغريزي

والطبيعي فيهم . هذا هو مرادي بالغريزة الاجتماعية .

قلت : ألا ترى أنه لا محيص من الدين لكي يحجز الشهوات ويحرك الضمائر ؟

قال : ليس الدين بقامع للشهوات ، ولا هو محرك للضمائر . وإنما تربية الناس منذ الصغر على تلك الشريعة الغريزية التي فطرتها لك هي التي تحجز الشهوات ، وتعوّد المرء أن يقمع شهواته . فإذا نشأت تربي الاحداث منذ الصغر على أن الصدق فضيلة تشرّف الانسان ، وان الكذب رذيلة تسفله ، وهي معرّضة للشيوع على هذه المبادىء ، ويصعب عليهم جداً أن يحيدوا عنها بعد ذلك إلا بحكم البيئة الاجتماعية الفاسدة . فهم يفهمون بالبداهة أن الجماعة لا تعيش بسلام وطمأنينة إلا بالحرص على جميع الفضائل . التربية تغرس الفضيلة في الناس والفضيلة هي الدين الحقيقي

قلت : ولكن ألا ترى أن الدين خير وازع للانسان عن الشر ويحمله على عمل الخير ، لأنه يعده بالثواب ويتوعده بالعقاب ؟

قال : إن كان الأمر كما تقول لقلّت الشرور جداً الى حدّ الزوال . ولكنها لم تقل ، بل تتكاثر لسببين : أولاً لأن المؤمنين من الناس يتذكرون العقوبة بالتوبة المؤجلة في هذا العالم ، ويطمعون برحمة الله في الآخرة . وثانياً لأن غير المؤمنين لا يعتقدون بآخرة ولا ثواب وعقاب ، ولا يخافون إلا عقاب الحكومة أداة الوعد والوعيد لا يزعاز الناس عن الشر ، ولا يحملانهم على عمل الخير . وإنما يفعلون خيراً ، ويتجنبون شراً بحكم التربية التي توقظ فيهم غريزة الصلاح الاجتماعية كما شرحت لك آنفاً . وهي شريعتهم الدينية وهي ضميرهم . وهي الثواب الذي يثيبونه ، والعقاب الذي يحشونه . إذا درست تصرفات الناس جيداً رأيت أن معظم الذين يرتكبون الشرور هم من صنف الذين يصومون طويلاً ويصلون كثيراً . وان معظم الذين يفعلون الخير ، هم من صنف الذين لا يصومون ، ولا يصلون . وربما كان أكثرهم غير مؤمنين . الفضيلة خُلُقٌ . والخلق ابن التربية . لذلك أن تجد شواهد كثيرة على هذا الكلام في الأفراد الذين تعرفهم ، وفي الأمم التي تعرف أموراً كثيرة عنها . فصاحبك رامي ليس لفلان أنه كافر بلا دين حتى قدر بذلك من هو غير مربّى على الأخلاق الشريفة ، الانسانية . الدين لم يضطره أن ينصفك . ولو كان ذا أخلاق سامية لأنصفك .

الفصل الحادي عشر

أوهم حلم أم حقيقة يقظة

[illegible] اختلفت في حجرتي وحدتي أتذكر ماضيّ . فرّ في مخيلتي حلم الليلة الماضية . خيّلت لي حوادثه كأنها حقائق . لست أرتاب فيما أنا فيه . هل أنا الآن في حقيقة ، أم في حلم . أحقيقة كان ذلك النديم أم كان حلماً ؟

ألست في رجداني حياتان لي . أيمكن أن يكون لإنسان حياتان ؟ . مستحيل لابدّ أن تكون إحداهما حقيقة ، والأخرى حلماً . خفت من تخريف عقلي . كيف أعرف الآن أني في حلم ، أو في يقظة ؟ وإني في وهم أو في حقيقة ؟ تزعزع وجداني خفت من مارض جنون

بعد بضعة أيام جاءني صديقي خليل الرحماني إلى مقهى كنت أنفرد في زاوية فيه فقال : ما بالك مقاطعني يا عزيزي جميل .

فتلت متصلاً الابتسام : لست أبتغي مقاطعتك يا خي ، وإنما أبتغي أن أتحاشى أن أريك من وجه اليأس بعد الخيبة التي لحقتني من جراء انفصالي عن الجريدة .

فقال : كل شيء فيك جيد ، إلا هذا اليأس الذي تتطرّح فيه . وهل رجل مستقبل حبيب المؤملات ييأس ؟ هلمّ يا هذا فإن بقلب شديده وأمل وطيد فكيف تأس . لا تأس فإن رجلاً مثلك يتنعه حظ سعيد من الحياة .

فتنهدت وقلت ساخطاً : تقول حظ سعيداً وأنت لا تعلم ما أنا فيه من الحظوظ . إن توزيع الحظوظ لأمر من سرّ لا يعلمه إلا موزّعها

واسترسلت في الموضوع بطلاقة وهو يسمع ساكتاً باسماً : أتعتقد أن الأرزاق توزع حسب الاستحقاق ؟ أي استحقاق ؟ الاجتهاد ؟ المؤهلات ؟ الذكاء ؟ الفضل ؟ الفضيلة الخ — أنت تعرف « نعيم النجم » يملك نصف شارع من الأبنية وريعه منه ثروة عظيمة . وهو يكاد يكون أبيّاً ، ولا يعمل خيراً ، وإنما يبطر ويبذخ ويبدّد . وإذا اختبرته تجده دون المعدل الوسط في الذكاء ؟ وعنده كاتب للحسابات يحصل للأجور منقف ، يزيد ذكاء وأخلاقاً . فهل ترى تقسيم الرزق عليهما كان عدلاً . وتعرف دافيد بروخ « المقطع الموصل » ، وقد أثرى من تعويضات شركات التأمين لمخروقات متاجره ومن تماثيله المصطنعة ، ومن مرهم الفاخرة ونحو ذلك . وقد تضحّى عن مدخ مطاعمه الجهنمية فلان وفلان من قد فيهم عبد عدالة في تقسيم الأرزاق ؟

وقس على ذلك أزقة لا ترى حظوظهم مساوية لاستحقاقاتهم في ذاتي ونفسي . إلى سر تقسيم الحظوظ وتوزيعها لكي نعلم ماذا يجب أن نفعل لننال حظاً سعيداً .

وأنت تعلم أني كنت صالحاً ونجحت

خيراً ثم كونت شراً . ترى الجزاء في هذا العالم معكوساً . ترى أناساً يسلكون سلوكاً حسناً هم في تعب وشقاء وآخرين يسلكون سلوكاً شريراً ولكنهم موفقون محظوظون

لا لا يا عزيزي خليل ليس في الأرض ولا فوق الأرض عدالة . لا ينفع العلم ولا الذكاء ولا النبوغ ولا الفضيلة ، ولا طيب القلب ، ولا سمو الأخلاق — في الحصول على السعادة . وما أنت مخيّراً بين ذكاء مع فقر أو جهل مع غنى فسلم لك الذكاء فقيراً كما يجده آخر غنياً . وتسلم لك الغنى الخلو جاهلاً أو ظالماً . لأجل أن تقسيم الحظوظ سرٌّ لا يدركه إلا الرزاق علام الغيوب . يمنح من يشاء ويمنع من يشاء ولا تدري ماذا يمنح وماذا يمنع . هو سرُّ القضاء والقدر .

عفواً يا عزيزي خليل . أنت مستثنى من هذه القاعدة ، قاعدة العدل ، ولغيارين الغنى والذكاء والعلم والفقر . أنت صنو سليمان الحكيم . لقد ميزك الرزاق بأن أعطاك الحكمة والمال والاخلاق السامية . فأنت أسعد خلق الله وأمثالك نادرون . أهنئك .

فضحك وقال : إن تلك الألوف من الأموال التي يبددها المرزوقون المسرفون السفهاء يا أستاذ ليست بدل ذكاء وعلم إنما هي ثمن عدل بيع بخساً ، أو ثمن ظلم اشتري غالياً . فما كانت الألوف في زمن من الأزمان أو مكان من الأمكنة لتنال بالبله أو بالقباوة أو بالجهل أو بالخساسة أو بالسفه أو بالكسل المطلق . وإذا كان [illegible] يتعب [illegible] في عمل [illegible] دائماً أن يناله من تعب [illegible] فيه زيد فيناله عمرو . فاختبه حصل جزء من مساوله . والخسارة في من يتعب [illegible] الذي تعب في تحصيله . الذي [illegible] فأولئك الكسالى [illegible] الذين يعكسون الأمر [illegible] بدل ذكاء مفقود فيهم [illegible] عليه ، أو بدل أخلاق يحتقرها حتى هم أن يحاسبوا ويقولوا ماذا نالوها بفضل خطأ فظيع في نظام المجتمع بسبب الفساد المتغلغل فيه . نالوها متممة من حاصل أتعاب الذين تعبوا في تحصيلها . وأنت تعلم جيداً أنه إذا كان المال جزاء عمل فلا يعقل أن الذي جمع الملايين تعب في حياته في العمل تعباً يساوي تلك الملايين ولا جزءاً زهيداً منها . وإنما نظام المجتمع الفاسد سمح لزيد من الناس أن يستغل تعب عمرو . والذين يتذمرون من سوء حظوظهم يلقون المسئولية في توزيع الأرزاق على الرزاق أو على القضاء والقدر . وفي الوقت نفسه يبررون فساد النظام الاجتماعي ويبررون منشئيه من أول قيصر إلى التنظيم فليس الرزاق ولا القدر مسئولين عن هذا التفاوت في توزيع الحظوظ والأرزاق بين الناس أنفسهم مسئولون عنه لأنهم [illegible] يتواروا ينهش بعضهم بعضاً . ما كانت هذه

الأنظمة الاجتماعية الا من أدوات هذا الجهد، وأنها أنسدم خلقاً، وأرعبهم بيتاً

قلت: اذاً عدالة عند الرزاق في توزيع الذكاء والأخلاق والحظوظ. ما ذنب المرء إذا ولد أقصاً ذكاء وضعيفاً خلقاً وقليلاً حياة. لا بد إذن أن يتفاوت الناس تفاوتاً عظيماً في الغنى والفقر والسعادة والشقاء كما هم متفاوتون في الذكاء والبلد. وفي الأخلاق الفريدة والفاسدة. فلا بد إذن أن يتفاوتوا في الحظوظ. وفي كسب الأرزاق، وبالتالي تبقى المسئولية على الرزاق أو على القدر إذا شئت. لأنه ليس في طوق المرء أن يولد ذكياً فاضلاً، أو قاصراً أو شريراً.

فقال: اعلم يا صديقي أن الناس ولدوا متقاربين جداً في الذكاء، ولا عبرة بالنادر ولكن البيئة الاجتماعية جعلتهم متفاوتين في الذكاء والأخلاق هذا التفاوت العظيم الذي نراه فيهم. وما ولد شخص إلا وله معه ذكاء كاف أن يحصل من الرزق ما يكفيه أن يعيش سعيداً، كما يعيش جميع سعداء الناس. إذا كان نظام المجتمع قد عادلاً يخير [illegible] الذكاء [illegible] الحظوظ [illegible] الرزاق ولا القدر مسؤولين عن تفاوت العقول والذكاء بين الأنام. بل الناس أنفسهم مسؤولون عنه بسوء نظامهم. ولو اعتدل النظام وعدل لقل جداً التفاوت بين المواليد في ذكاء العقول لأن لهذا النظام الفاسد الأعوج تأثيراً عظيماً في السلالات. ألا ترى أفراداً من السلالات البشرية المنحطة نبغوا حين أتيح لهم أن يتربوا التربية الراقية في أمة اندنية؟ كان هذا نظام العالم ولا يزال هكذا حتى عصرنا الحاضر. ولعل تطورات المجتمع تغيره أو تعدله أو تنقحه كما كانت تفعل في الماضي. هذا هو نظام العالم الآن. فعليك أن تسير مع تياره بمقتضى ذكائك وفطنتك، ولا تستسلم لعقيدة أن الحظوظ تمنع من القدر والا سحقتك هذا التيار.

[illegible] وذكي فلا تعدم مستزقاً سخياً. ولقد عثرت على وظيفة لك هي خير ما تتمناه. أن تلزم السباك تاجر الأصواف والأجواخ «بالجملة» [illegible] الثمن جداً. وقد صار [illegible] له [illegible] فاقصص عليه [illegible] ذكرتك ووصفتك له كما [illegible] أرجو أن تشتغل معه في أول الأمر بمرتب معتدل. فإذا رضي عن عملك بعد الاختبار فقد يشركك معه. وأرجو خير عملك تستفيد من خبرته كثيراً. وسيكون أجرك من أول يوم مجزياً. سر على بركات الله

الفصل الثاني عشر

سكرتيرة جديدة

مضت بضعة أشهر حتى كان السيد نديم راضياً عني كل الرضى. كنت أضبط الحسابات والقيود واضحة، وكنت أحسن ترجمة الرسائل بالعربية وبالانكليزية الى مكتوب وغيرها. وكنت أحسن معاملة البيع والشراء، ومحاسنة «الزبائن»، وكان «الزبائن» يحبونني للسيد نديم ويعضهم يحسدونه عليّ. فتمسك بي ولم يقصر في مكافأتي.

وقرب العيد فاقترح عليّ أن أذهب الى المكتب لعقد صفقات مع المصانع كما اعتاد هو أن يفعل. فسررت جداً من هذا الاقتراح، وأكدت له أني سأقوم بالواجب خير قيام بإذن الله. وزودني بالتوصيات والمعلومات. وسافرت وقضيت العيد كما ينتظر وتوفقت جداً.

عدت من انكلترا بعد شهر فاتحاً. وكان السيد نديم راضياً كل الرضى عن عملي ونتائجه، وأصبح يعتمد عليّ بجميع الامور الخطيرة. ولما كانت صحته وسنه تضطرانه اضطراراً الى التقاعد عن العمل، اقترح عليّ أن يشركني في تجارته برأسمال أربعة آلاف جنيه فلم منه، والنصف الآخر يسلفه هو ويحسبه ديناً عليّ بفائدة ٦٪ على أن أسدده لي أقساطاً من حصتي في الارباح. فسرني جداً هذا التدبير وعينته على الفور.

ربيت على التجارة. فإن السيد نديم من زوجة روسي فاضل، فاتفقت معها على أن آخذ المحل كله على حسابي وأن أوفيها المال في مدة أربع سنوات. وكان التجر حسناً والنتائج مرضية جداً.

ولي ذات يوم جاءني تاجر أعرفه وقدم لي فتاة باسم لندا حائك وقال: علمت أنك في حاجة الى كاتب يقضي لك أشغالاً مختلفة. فإليك بهذه الآنسة وهي خير من يقوم بعملك. هي فتاة متعلمة جيداً، العربية والافرنسية والانكليزية والخط المختزل والكتابة بالآلة الكاتبة. كانت تشتغل في مصرف (بنك) وتتقن بها مهام جسام. ولكن المصرف لا يدفع الأجر مساوياً للعمل. جربها أسبوعاً، شهراً، أشهراً. وعيّن ما تريد للقيام بالعمل، ولحن والنور بعينك.

فنظرت في الفتاة نظرة من سبب فؤادي.

جمال بارع في ذاته يكبر من أمرها: نشاط بادٍ في حركاتها، سباحة في عيناها، قوة في مراستها، ودلالة في إشاراتها، فرق في ذاته هندامها، أظهرا لتيه والدلال

والعشرين من العمر. لم أتردد في قبولها. علمت أنها يتيمة الأب، وليس لها إلا أم بلا اخوة

ما هو إلا أسبوع حتى وهنت الفتاة على أنها أكفأ مما قال عنها مقدمها. ومشى العمل بانتظام، وحلت الفتاة عندي كما حللت أنا عند المرحوم نديم السماك، ونالت كل الرضى والعطف مني، والأجر المعادل لعملها وأزيد.

وما لبثت ان سحرتني هذه الفتاة ليس بذكائها وحسن عملها فقط، بل بوداعتها وطاعتها ورقتها ولطفها وأمانتها واخلاصها، الى أن انتهى هذا القرب بالحب. وهل يمكن أن ينتهي بغيره؟ والمكان والزمان يضماننا روحين. فلماذا لا يضماننا جسدين.

ولما تحررت أمها مما بدا بيننا من هوى عذري، تدخلت بدهاء اللطف، وفرضت علينا الزواج فرض الأم للولدين. فاتحدنا به وعقدناه.

* * *

وعشت مع لندا زوجين متعاشقين متهنئين متشاركين في العمل متمتعين في الحياة السعيدة بصفاء تام بلا كدر.

وهيدا الحب مع البعد في المكان والزمان بيني وبين سلمى ودورا أنانيهما أو تناسيهما. ولماذا أفكر بهما وبيني وبينهما أوقيانوس في المساحة، وأوقيانوس في الثراء، وأوقيانوس في الجاه، وغاب عن تفكيري أن بيني وبينهما تجويف قلب فقط.

بعد حين شعرت بالمرض والتعب والضعف لشدة الجهد في العمل. فاستدعت زوجي الطبيب الذي تثق به فتفحصني وقال: ليس فيك إلا ضعف عمومي من جراء التعب. ولا علاج للتعب إلا الراحة. فأنصح لك أن تغير الجو في أوروبا مدة صيف، وإلا فيشتد هذا الضعف ويتحول الى سقم عصبي قد لا تبرأ منه.

فتمسكت زوجتي بنصيحة الطبيب هذه، وألحت علي أن أذهب الى أوروبا لأتنزه وأنتهز الفرصة لزيارة المصانع وعقد طلبات معها. وتعهدت أنها تتكفل بإدارة المحل في غيابي كما في حاضري فيه. ووثقت بكفاءتها هذه لما رأيته من مقدرتها، فانصعت لإلحاحها.

وقبل أن أسافر طلبت مني توكيلا عاما لكي تستطيع أن تصرف الأشغال في غيابي بسهولة، ولا تجد عقبات وموانع في سبيلها. فاستصوبت طلبها هذا، ومن يكون أخلص للمرء من امرأته التي تماثله الحب والطاعة. فأمضيت لها توكيلا أصطنعته عند محام تعرفه جيداً. ثم سافرت على بركات الله مطمئنا على عملي كل الاطمئنان.

* * *

قضيت في أوروبا ثلاثة أشهر أروح فيها النفس، وأدرس المصانع والتجار. وزوجتي كانت تكتب لي من حين الى آخر ان كل شيء سائر على ما يرام.

ولما اكتفيت من السياحة عدت. فماذا رأيت

رأيت السماء أطبقت على الأرض، وجهنم انفتحت سطح الأرض عنها، ولطمت السماء بروتيه وأنا سحوق بين الطبقتين، محترق بين الزوفين، غريق في بحور السموات والأرضين.

ماذا أكون غير ذلك وقد وجدت متجري تحت تهديد الإفلاس، والمحتالين علي حائمين حولي، يتوقعون القضاء على مرتزقي حتى لا تقوم بعد ذلك لي قائمة — من عم؟

رأيت حولي شمعون الحائك وعصابته نفس الأشخاص الذين طردوني من جريدة المصري الحر وقد ملكوها. أعملوا معاولهم لهدم تجارتي وانتهابها.

ويلاه! ما الذي جاء بهؤلاء إليّ يا لندا؟ ما شأنهم؟ من شمعون هذا؟

قالت: هذا ابن عمي.

فذهلت... هذا ابن عمك؟؟؟ ويحك! أيهودية أنت؟ وكيف تكلمنا في الكنيسة المسيحية؟

قالت بكل برودة: كان أبي غفر الله له يهودياً ثم أمي مسيحية، وقد ربتني مسيحية.

— أي حق يعني شمعون ابن عمك الحجز على تجارتي.

— بصفة كونه مدير الأشغال في شركة جريدة «المصري الحر»؟

— شركة «المصري الحر»؟

— نعم صارت شركة عظيمة لأنها أصبحت جريدة تجارية بإعلانية بورصية. وارتفعت أسهمها فنصح لي ابن عمي شمعون أن أشتري أسهماً منها. فاشتريت قسماً كبيراً من الأسهم حتى يكون لنا الحق الأول في مجلس إدارتها وتتولى أنت تحريرها. وقد دفعت قسماً من ثمن الأسهم...

فقلت على الفور... ونزلت قيمة الأسهم وليس عندك ما يغطي ثمن أسهمك. فحجز شمعون على تجارتي. أليس الأمر هكذا؟

— نعم ما نزلت قيمة الأسهم فالجريدة أفضل من تجارتك لأن أرباحها..

فصحت بها: تبًّا لك من خبيثة شيطانة. كيف تعملين هذه الفعلة الشنعاء يا لئيمة والجريدة لا تساوي شروى نقير. لقد لعبوا هذه اللعبة وأنت مالكتهم لكي يغتصبوا مالي انتقاماً مني، وأنا لم أسيء إليهم بشيء فيما كتبه خليل رامح عنهم.

قالت: ألا يعجبك أني رددت الجريدة لك وهي عائمة الآن على الإعلانات وعلى أخبار البورصة والتجارة والأسواق.

— تبًّا لك. هل أنا فيلسوف بورصة يا شقية حتى تهيئي لي هذا المنصب. لقد ضحكوا عليك ولعبوا عليّ دوراً إبليسياً عن يد تغفلك ولؤمك يا غبية، أم أنت متواطئة معهم؟ قولي لي. ما هي قرابتك للطبيب الذي نصح لي بالسفر إلى أوروبا؟

أما ذكرتني منذ برهة قصيرة ؟ صمتك تتذمر من حياتك الثانية ، وتتمنى حياتك الأولى . فكيف كنت من الثانية ؟

— الثانية شرٌّ من الأولى بأملاكي . ملأى من المصائب والشرور .

— بل قل أنها ملأى من الأغلاط أيضاً . لقد تذمرت في حياتك الأولى من كثرة أغلاطك التي جرَّت عليك مصائبك ، وكنت تزعم أن مصدرك فيها جهلك ، وعدم اختبارك . وتمنيت عودة الشباب لكي تعيش حياة جديدة تصحح فيها أغلاطك ، لكيلا تقع في مصائبها . ولما كنت رجلاً طيب القلب صالح النفس أجبتُ سؤلك . فقضيت العمر الجديد وأنت ترتكب مثل الأغلاط التي ارتكبتها في حياتك الأولى بأوسع مدى ، وأشد فعل ، وأسوإ حال . فماذا تريد بعد الآن ؟

هل تريد حياة ثالثة تصلح فيها أغلاط الثانية ، ثم رابعة تصلح فيها أغلاط الثالثة ، وهكذا دواليك الى ما لا نهاية له ، كأنك مختار في عدد الأعمار لكي تنال منه أعماراً تستغرق الأبد ؟ أما كفى أنك عشت عمرين ، واختبرت العالم اختبارين ؟ . أما اهتديت الى أسباب إخفاقاتك ، وعلل أغلاطك ؟ وما هي في الحالة التي أنت فيها ؟

قلت : تفضل اجلس على الكرسي وأجبني مرتاحاً . أليس عندكم عالم آخر غير هذا العالم ؟

جلس وقال : هذا عالم البشر لا يعيش فيه إلاَّ البشر . أتريد أن تخلق لنفسك عالماً خاصاً بك لا شرور فيه ولا آلام ولا أحزان ؟ إذن أنت لا تطلب غير أجزاء صبر ، وبعض جهاد . بل تريد أن تكون حجراً أصم لا يعاني ، ولا يشاء ، ولا يحس ملاحاً ، ولا يجاري على ملاح . فمن تريد أن تتحول الى حجر ؟

قلت : لا لا . أريد أن أكون إنساناً كما أنا ، أحس وأشعر .

— أتريد أن تكون نباتاً ؟ إن النبات ما يحس

— لا . بل أريد أن أكون في كياني أحس وأفهم وأعقل .

— إذاً تريد أن تكون فيلسوفاً ؟ . إذاً أنت فيلسوف

— أريد أن أفهم هذا العالم فهماً تاماً وأتدارك شروره

— إذاً فتريد أن تكون نبياً . إنه لكي تفهم بعض أفكار البشر ، وبعض أغراضهم ومكايدهم المضمرة . هذا الصنف من الخلائق خاصٌّ بعالم الأملاك ، فليس للنبي نصيب أنت مخلوق في ملكوت الإنسان . هذا الملكوت مخلوق بين عالمين متباينين بذاته : عالم الملائك الأبرار ، وعالم الأبالسة الأشرار ولذلك يجمع الأضداد ، ففيه الخير وفيه الشر ، وفيه المسرة ، وفيه الألم ، وفيه الفرح ، وفيه الحزن .

قلت : أخشى أن أكون في زاوية من هذه الحياة الشرقي فتجدني خيراً وتشراً في زاوية [illegible] أحيانا يوم ترتاح من مكابدة الشرار .

قال : إذن أنت تريد أن أعلمك الانتظار .

قلت : كلمة واحدة أريد أن أتعلم لكي أتخلص من جحيم هذه الأرض فقصدت أنت هي الطريق إلى السماء . فجئت دون التجارب

قال : ليس الأمر كما تظن يا بني ، ولكنك مجنون أو سكران كما تقول الناس . بل سأعلمك كيف ترفع الآجان . كان يجب أن تبقى في مالك مجاهد فيه لكي تنال جزاءك في الآخرة .

— لماذا لا يكون العالم خالياً من الشر ؟

— إذا كان خالياً من الشر فيكون هو والفردوس سيّين . فلا تكون الأرض ، ولا السماء ، ولا الجحيم ولا النعيم

— لماذا لا يكون الأمر كذلك ؟

— إذا كان الأمر كذلك فتكون الحياة بلا غاية ، ولا يوم لها ، والأجل إنما قصر من السنين لغاية ما . أتظن أن الإنسان خلق عبثاً ؟ إن حياة الشر ذكرك أن تشعر أن لك نفساً وأن الإنسان

— لماذا لا تكون نفس بلا جحيم

— إذا كان نفس بلا جحيم ، فلا يكون ثواب ، ولا عقاب ، لأن النعيم ثواب ، ولا بد من شر الصلاح ليتحصل على ثواب ، وكيف تشعر بلذة النعيم إذا لم تذق مرارة الجحيم وزعيرها . وعندما تتبين الأشياء لا يشعر الإنسان بحياة نفسه ، إذا لم يروا

الأشياء يتعذبون في جحيمهم .

— وإذا لم يكن ملاح ولا ثواب ، فلا تكون [illegible] .

— إذا لم يكن ملاح ولا ثواب ، فلا تكون ثمة حياة حساسة عاقلة . وهيئات تعرف شعرتي عباد أن أكون جاداً لا يحس ولا يشعر .

— إني أريد أن أكون إنساناً يحس ويعقل ، وأن تقصد أنت إلى جانبي حارساً لي من شرور هذا العالم ما دمت أنت ملاكي الحارس كما تدعي . تردني عن فعل الشر إذا أوشكت أن أرتكبه ، وتعصمني عن كل خطاء وإثم ، وتحفظني من كل أذى . وإلا فما معنى أن تكون ملاكي الحارس ؟

— تعني أنك تتنازل عن حريتك وتسلمني زمام نفسك ، وتجعلني مسئولاً عنك أمام ديانك . فأي فضل لك تستحق عليه ثواباً . وأي فرق بينك وبين الدمية .

— وهل أنا حرٌّ حقيقة ؟

— أنت كما تشعر . ألا تشعر أنك حرٌّ ؟

— بلى وأحياناً أشعر أني غير حرٍّ

وصفق فتحت حر من الباب بطن ، فقال في استقبل زائراً الآن ، ريح جديدة الحرية أن حين آخر .

ثم أخذ الشر يمده فالماء السكان تدريجاً ، وشرع طيف الملاك يختفي ، ويبدأ إلى أن غابت الغرفة جلياً إذا كانت فعلاً . فقمت وفتحت الباب ، وما أعظم ما رأيت .

في قراءة [illegible] فضعت
من أنتم
— [illegible] ؟ [illegible] ؟
— سلمى الزعفراني [illegible] ؟
فتحت [illegible] عيني لكي [illegible] في حلم أم في يقظة . في أية حياة أنا [illegible] خفت أن تستحيل هذه المرأة وتغيب الطريق الذي أنا فيه . قالت : — إن صديقتك الجديدة سلمى [illegible] .

جمعت أفكاري وأجيل نظري [illegible] أن فرطت مني كلمات [illegible] أكلم نفسي : هل عدت الى حياتي [illegible] حلم الحب القديم

— حياتك الأولى ؟ هل تهذي ؟

— أجل ذلك الحلم القديم الجميل السعيد في تلك الحياة [illegible] أن [illegible] تشتغلان [illegible] [illegible] لا [illegible] [illegible] سعادتي يا سلمى [illegible] السعيد يا سلمى [illegible] الثائرة يا سلمى .

— [illegible] يا يوسف [illegible] حلم [illegible] أنني [illegible] ! إنك في يقظة النهار وانتباه [illegible] تذكر حديث [illegible] تشتغلان يا يوسف .

يوسف ؟ همست لنفسي . يوسف ؟ إذاً [illegible] التي ردتني [illegible] في حياتي الثانية . إذاً الثانية هي الحلم وقد تيقظت منه أو ان ملاكي ردني الى الحياة الأولى لأني ندمت على استبدالها . ويلاه ! أمجنون أنا ؟ أم أنا مخبول ؟

ثم قلت [illegible] : إذاً يا سيدتي [illegible] أحقيقة إنك سلمى الزعفراني ؟ أين كنت وكيف جئت ؟

[illegible] يا عزيزي . [illegible] أنا سلمى الزعفراني [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] لكي أمنح [illegible] . ثم عدت الى الشرق حنيناً الى الوطن [illegible] [illegible] [illegible]

ويستقصي [illegible] أن أحضنه [illegible] ولكنه يبتعد عن [illegible] [illegible] تصرفاته [illegible] وترشد [illegible] التي [illegible] حيث [illegible] يا عزيزتي [illegible] الآن

[illegible] في يقظة الآن . إذن سلمى تتحقق الآن . سلمى تنسى الأسى الذي ذقنا من أجراحي في عهد الصبا وتنسى الدموع التي سكبتها بسببي . ما أطيبك يا سلمى . لست أدري عن ذلك الاعراض الذي أبكاك يوم الوداع : لقد أفرطت في زهو الشرق الطريق [illegible] استجاب يوسف التائه رجاءك حينئذ [illegible] ستعودين بذلك ، ولما قضت عليه ستعودين وحدك . فاهتدي . إنما أنت [illegible] . وأما أنا فخليق [illegible] بالصفاء [illegible]

[illegible]

* * *

[illegible] حتى [illegible]

الذي [illegible] وما كانت أشد دهشتي حين [illegible] فريدة أمسكت الحبيبة القديمة التي [illegible] في [illegible] [illegible] زجرني بين الحبيبتين [illegible]

قالت سلمى مسلمة النظر إليها : ألا تذكرين أنت الآنسة التي اعترضت في سبيلي مرة قبل [illegible] ؟

ورأيت فريدة تحملق فيها وقالت : عجباً لا أذكر أني رأيتك قبل الآن لكني أذكر السبيل الذي احتكرته لنفسك فاعترضتك فيه . السبل كثيرة وواسعة لجميع الناس ، فلا أحد يعترض أحداً .

فقالت سلمى : الناس لا يعترضون بعضهم بعضاً لضيق السبيل بل لسبق الوصول . دفعتني في قديم الزمان الى الوراء فهل وصلت الى الهدف المؤمل في هذه الأيام ؟

ورأيت فريدة تلتهب وهي تجيب سلمى وقالت : آه ! ما زلت جادة الى الهدف ولم أصل . ألا تذكرين السيدة التي سابقتني إليه قديماً وقد سبقتني إليه أخيراً . لقد سمعت بأنك وصلت إلى هدف آخر [illegible]

فقالت سلمى [illegible] إلى هدف آخر [illegible] فلماذا تذكرينني هذا الطموح ؟

فقالت فريدة [illegible] : لست أنكره يا عزيزتي عليك . [illegible]

تلك الأمنيتين . وأما أنا فخسرت المطمعين، أنت تستلين بقلبين ، وتنعمين بحبين ، وأنا أشقى بحبيبين، أفلا تتفضلين أن تتنازلي عن أصغر نهائك إنصافاً لي ؟ وتكونين سيدة الكرماء كما أنك سيدة الكبراء .

— اني أرثي لك يا عزيزي ، وأخشى لك الجوّ لكي تروّي ظمأ قلبك من رحيق الحب . وانما لا تكرهي عليّ عطفي على هذا القلب الطيب الذي لوّعته كرات الحدثان وغير الزمان .

وهنا تقدّمت سلمى إليّ لكي تصافحني مودّعة ، ومشت تحت خدري شيئاً لا أدري ما هو ومضت مسرعة .

ملاك دخل ، وملاك رحل .

تقدّمت فريدة وكأن باب الفردوس انفتح وتدفّق النعيم الى داري ، ونهضت في سريري أتلقاها .

وجلست في تنين الترحاب في ابتسامتي، والسهر في خدّي ، والنشوة في زهري ، وجعلت يدي ووضعت مقياس الحرارة في فمي .

[illegible] تكاد تطفر الى [illegible] الحرارة ، وقالت : اضطجع في سريرك يا عزيزي ولا تزعج نفسك .

فاضطجعت ، ولما نزعت المقياس من فمي ونظرت فيه متجهمة قلتُ : ما الذي دفعك الى هذا الرطيس الذي ألتهب فيه ؟ فهل جئت لكي تتفقديني أو لكي تحترقي فيه ؟

قالت : جئت لأعود المريض . فأبوها تشاء .

قلت : لا تستطيعين أن تعشي الشيم المشوبة بخير . قالت : تستطيع عيادتي ؟ قلت : فائدة لك من احتراقك فيه . فسكت قليلاً يتصح الهشيم رماداً .

قالت : سأخفي الهشيم وأريك عشباً نضيراً في مرجة تحفها خضراء .

قلت : هل تستطيعين أن تحيي العظام وهي رميم ؟

قالت : الأوان يستطرد .

قلت : هل بقيت عندك صبغة خرداله ؟

قالت عندي ما ينقل الجبل من هنا الى هناك .

قلت : أين كانت خردلة الايمان هذه يوم كنت أغالب الزمان، ويغالبني الحدثان، وأنا في مسيس الحاجة الى قوّة إيمان

قالت : كانت مزروعة ، وأخيراً نبتت خردلة الحب حُمرة طاهرة نقية .

قلت : أجل طاهرة نقية ، ثم لفحها ريح سموم

قالت : أجل لفحها وكاد يذويها فسادت واعتصدت أن [illegible] قريباً يشفيك مريضاً ويحييك ميتاً

فتبرّمت وقلت : في الصيف سيعت التين ، يا هذه

قالت : ضيعتُ التين ، والآن رجلت العسل .

— أو ما علمت أني أفلست؟
— أو ما علمت أني فديتك؟
— فديتني؟ كيف؟
— وفيت دينك وامتردت نجوارتك لك
— ويحك! ألا تدرين ما ذا تفعلين
— أدري اني صنتُ بكرامتك واستنكرت عوائك.

فاستبقيت لك حريتك. لست بمشتريتك بمال، بل بتلب ان كنت تبيع

— لله منك بارعة في الدهاء، كما أنت بارعة في الجمال. كنت أعرف الثاني، وأجهل الأول. فأنى لك هذا؟ ومن علمك؟

قالت: علمنيه الأستاذ الأعظم رامي السهام (إلهه الحب)

قلت: وهل منحك الأستاذ الدبلوم؟

قالت: نعم ولكن بنقصه توقيعك عليه

فتبسمت ملء شفتي، وانعقد لساني.

فقالت: ما ضاحك؟ لا تصدق!

قلت: انك لمن فطن نظيم، فكيف خفي؟

— أي فصل لغتي!

— ولا لك ما درست اللغة الانكليزية ولا دخلت الكلية، ولا لك ما صرت إسماً فاشتهر بي وعرفت منهالنا؟ قل مرة.

وقالت، مب نفساً وقر عيناً وهون عليك فستتمتع بانسانية عاجلة، إني ذاهبة لكي أستدعي لك الطبيب، وسأسرّ منك بنفسي

ثم خرجت وتركتني ذاهلاً مما قالت:

وفت ديني. أي دين؟ أدين تحمون؟ هذا حلم حديث لا علم لها به. وهي كانت في حلمي القديم. فهل عدت دين سليم الصافي؟ فهو حلم قديم... هل لا أزال في الحلم القديم؟ ربّاه أنقذني من هذا الخبل. ان عقلي يتقلقل في دماغي. أفلتني في بدء جنون

الفصل الخامس عشر

هل ما قدّر يكون؟

دخل صديقي الرحماني وجسّ نبضي، وحسّ حرارتي، ووضع مقياس الحرارة في فمي. ثم فحصه وقال: لقد هبطت حرارتك الى الثمانية والثلاثين والنصف. إذا لم تهبط غداً الى السبعة والثلاثين فأحذك الى المستشفى. لقد دفعت للمستشفى عشرة جنيهات عربوناً للغرفة حسنة، والأرجح أنا لا نحتاج إليها. أما التسعون جنيه الباقية فأردها الى خزانتك في محفظتها، إذاً تكون غداً في حالة جيدة إن شاء الله

قلت: ان زيارة فريدة خطيبتي في حياتي الأول أنعشتني جسدًا فتحسنت حُمّاي.

فقال صديقي مجفلاً: خطيبتك في حياتك الأول؟ هل لك حياتان، أم إنك عدت الى الصبيان؟

— وي. وي. معذرة يا عزيزي. أتكلم في حلم. فلا تحاسبني على تخريفي. ان الحمّى تربي أشكالاً وألواناً. أظن الأفضل ان تنقلني الى المستشفى في الحال على كل حال. فإن بقيت أهذي فانقلني الى مستشفى الأمراض العقلية، لأن دماغي أخذ يتهدّم وبراكره يختلط بعضها ببعض، وأليافه جميعاً تندمج كتلة واحدة. آه يا عزيزي الحميم النصوح المخلص. فقد ضعضعت الحمى عقلي.

وطفقت أبكي وهو يؤاسيني ان [illegible] تحت وتركني ومضى. لا أدري [illegible] من الليل، وأنا في إيمان إغفاءة [illegible] شعرت بقوة تهزّ جواشحي، فإذا بي أرى [illegible] ملاكي واقفاً لدى سريري [illegible] بديع في حلك الليل [illegible] وقلت: أهلاً يا ملاكي [illegible]

فقال: لقد عدت الى حياتك الأولى، ثم ما لبثت إن حسبتها حلماً. وحسبت الثانية الحقيقة. وأسفت لضياع ما كان في تلك من حب لفريدة، وحب لسلمى. فها أنت الآن على مفرق الطريقين بين الحياتين. فأيتهما تريد، وأيتهما تختار، لتتمة العمر فيها؟

قلت: كلتاهما عندي سيّان. اختلاف في الحياتين وخيبة في الحبين. وإنما أتمنى أن أنهم شيئاً واحداً. لماذا تطابقت الحياتان، هل لو عشت حياةً ثالثة....

فقاطعني قائلاً: — ستعاود الحياة الثانية، والأول أيضاً. وهلمّ جرّا.

قلت: إذن لا فائدة من التجربة والاختبار. حيث لا حرية في الاختيار. فكأنّ ما قدّر يكون

— لا شأن للحرية في هذه المسابقة.

قلت: إذن أين السر في هذه المسابقة؟

قال: السر في جبلتك أولاً. ثم في بيئتك

ثانياً . إذا تشابهت الجبلتان والبيئتان تشابهت النتيجتان . إذا تغيّر أحد الجانبين تغيرت النتيجة . فمن الطبيعة والمزاج والأخلاق في نفس البيئة تنتج نتيجة واحدة . وإنما اتسمكة في الماء سمكة ، وفي البر زحافة ، وفي الهواء طير . فأنت في تقلبك على حياتين لم تتغير جبلتك ، ولا تغيرت بيئتك ، فلا يمكن أن تختلف حالتك اختلافاً جوهرياً .

قلت : إذن الطبيعة تلعب في الانسان كما تشاء فلا اختيار له .

قال : ليس للطبيعة مشيئة ولا اختيار ، وإنما هو تفاعل بين مزاج الانسان وأخلاق الطبيعة ، أو إذا شئت فقل بين اخلاق الانسان ومزاج الطبيعة .

قلت : إذن الانسان لا يستطيع أن يغير شيئاً في مصيره . فزاجه والطبيعة يقرران مصيره .

قال : بل يتغير مصير الانسان إذا قضت ارادته أو ظروفه بتغيير بيئته . وقد يمكن تغير بعض مزاجه أيضاً بتغير بيئته .

قلت : إذا كان مصيره يتوقف على بيئته فهل للانسان مشيئة في جبلته وبيئته ؟

قال : في جبلته لا مشيئة له . هي قضاء أزلي ، ولا ارادة له في القضاء . وأما بيئته فله حرية في تغييرها ، والانتقال من بيئة الى أخرى ، ومن وسط الى آخر ، ومن معشر الى معشر .

قلت : إذا لم تكن لي مشيئة في جبلتي فاذاً أنا غير حر

قال : نعم لست حراً في انتخاب جبلتك . إنما هي ارثٌ لك من سلالتك [illegible] طبعك ، صفاتك — كل هذه [illegible] هي سلسلة من سلالتك ، فليس لك سلطة على إنشائها ، ولكنك حر في اختيار بيئتك ، ولا سيما بعد أن تخرج من حضانة والديك ، ومصيرك يرجع الى حريتك في هذا الاختيار

قلت : ما دمت لا إرادة لي فيما يتوقف عليه مصيري ، وهو مزاجي وحتى حتى بنية جسدي فأنا حرٌ ، ولدت قاصر النظر فلا يمكن أن أصير فيلسوفاً مهما غيرت بيئتي . أو ولدت ذكياً ، فيمكن أن أكون فاشلة أينما كانت بيئتي . فاذاً ارادتي جزء من جبلتي . فليس لي سلطة عليها ، فما أنا حر في أن أجعل نفسي ذكياً أو أبله . أعني أن ما يتراءى لي من حرية الارادة ليس إلا وهماً أو خداعاً للضمير والوجدان . فلا توجد حرية مقيدة ، هذه سخافة

قال : ما قلته الآن هو الحقيقة ، لا حرية لك في نشأتك ، ذكياً كنت أو أبله ، عصبي المزاج أو هادىء الطبع الخ . ولكنك أنت حرٌ الى حدٍ في تصرفاتك ، وبقدر هذه الحرية أنت مسؤول ، فلا تتنصل من مسؤوليتك . في حياتك تطابق في حوادثها الرئيسية لأن مزاجك غالب على ارادتك في تصرفاتك ، فأنت طيب القلب فلا تستطيع أن تكون رديء النفس . لذلك أحسنت الظن بالناس

في الحيوان ، وقست في حبائل الناس في الحالتين . ولكن الحيوان لم تتطابقا في [illegible] لأن حرية إرادتك ليست فيها [illegible] الحيوان فتقف [illegible] التخير .

فإذا وقفت فيما دام في حيلتي مناص عن حرية كنت ، ومن الجور ، وبليغ حمله ، أن تعرية الوالدة لو فيما وقع مسئولة عن كل ما في الدنيا من الشاب لسلطة جملي ، وما دام هذا سبيل الأمر من الجبر والشر ، فيه مسالك إلى الخير والشر لا تحصى ، فالإنسان معرضة للوقوع في الأغلاط والأوزار . وما من أحد مهما كان مرتفعاً في مزاجه وأخلاقه يستطيع أن ينجو من الوقوع في الخطأ والوزر . إذن فليس من العدل أن يدان ويعاقب .

قال : يدان على قدر ما له من الحرية في تصرفاته لا قدر ما له من التوفيق في مزاجه .

— ٠ —

الخير والشر

قلت : ولماذا يكون في العالم الشر ؟ وكيف نشأ الشر ؟

قال : لا بدَّ من نشوء الشر لأن الحركة طبيعية في الأكوان ، وسببها قوة التجاذب التي هي طبيعية في الجزيئات أصل المادة . وما دام بين أجزاء المادة تجاذب فلا بدَّ من حدوث تصادم أو تفاعل بينها . هذا هو أصل الشر في العالم الأدنى [illegible] شعر لأن فيه قوة الإرادة [illegible] وأخرى قوة التخيير [illegible] متجاذبة متنازعة [illegible] والشر في [illegible] عقاب . وإن كان [illegible] تكون الدينونة .

قلت : [illegible] التصادم .

قال : [illegible] جميع الكائنات [illegible] فهو المسؤول .

قلت : إن التصادم في الطبيعة المادية أو الأخلاقية أو كل تصادم إنما هو خارج عن حركة الفرد . هو حادث قهري مادي لا يستطيع أي انسان أن يسيطر عليه ، ولا على أقل حركة منه . ولأن الحوادث لا تكون تدخلاً في أعمال الإنسان ، فلا إرادة للإنسان فيما يفعله ، بل هو مجبر على فعله ، وإذا كان الشر فيه جبر وما هو شر ، والشر فما هو مسؤول . وحاصل القول أني لا أعلم سبباً لمجازاتي أو احتقابي في شيء هو كان طوع إرادتي ؟ فما هو مقياس الاجتهاد والسعي ، أو على التوفيق ؟ على أيهما يتوقف ؟

قال : يتوقف على كليهما [illegible] هذا وأخرى على ذلك ، أنت لا تستطيع أن تمنع القدر إذا أغرق السفينة بعاصفة ، ولكنك تستطيع أن تسلم من خسارها [illegible] أنت

عليها إلى شركة تأمين ، ولا تستطيع أن تمنع شح المواسم وفساد الغيط . ولكنك تتلافى الحاجة اذا كنت مقتصداً ، وتكثر المؤونة ليوم المحل والقحط ، ولا تستطيع أن تتلافى الخسارة اذا أنزل الندرة الأسعار لطارىء لم يكن في الحسبان ، ولكنك تتدارك الأمر اذا أنعمت النظر في الصكوك قبل أن توقع عليها ، لكي تتأكد انها لا تحتمل التزوير ، او انها مطابقة لما وافقت عليه ، فاذا كان عندك بضائع حين نشب الحرب كان ذلك توفيقاً ، واذا حدث صلح بغتة وخزنك مكتنز بالبضاعة الغالية ، كان ذلك محالك . فليس لذكائك شأن في أية الحالتين . وانما

لكي تكون مرجع النجاح
ى الذكاء في كل حا
التوفيق . ليس لك يد في
حرية في أعمال التبكير و
مجتهد نصيب .

— ألف شكر لنصائحك
الفيلسوف .

* * *

عند ذلك تمم جريس
ثم استقبل داره ، وفي
ورأيت مائع نور الصباح
فقمت وفتحت الباب ،
ردتني الى الوراء صريعاً

الفصل السادس عشر

شيطان وملاك

هذه صفحة من الصفحات التي قال عنها ملاكي الآن ، رجعت مسرعاً الى سريري مترنحاً من سكاتي ، ومحترقاً من سعير الحمى التي في دمي ، دخلت عليَّ لندا زوجتي المطلقة ، دخلت بخفة روحها ، وابتسامتها المعتادة ، وقالت : سمعت يا عزيزي أنك مريض . جئت لعودك ، كيف حالك ؟

— حالي كما تشتهين ، مادا تشتهين ؟

— السلامة والعافية لك يا عزيزي ، أنت رجل طيب القلب جداً ، ولكنك ساذج ، بل مغفل .

— حقاً إني مغفل ، وإلاَّ لما سلمتك دفتر سر أسفارك الى أوروبا ، كما سلمتك قلبي بعد أن قتلتك في مكتبي .

— أنت كلب مخلص أمين .

— نعم أخلصت لك كالكلب أميناً ، وأنا الآن أتقدم الى البردعة من قفاه ، لكي يرفسني برجله ، ويشتمني بأقذع الشتائم .

— لا تقل هذا العيب يا عزيزي ، لقد كنت أحب زوجي . أنت تعلم أني لم أكن أحبك ، ولا أحب أحداً غيرك يا عزيزي ، ولا لكنت قتلته كما قتلت زوجي الأول ، وأرسلته الى جنب فرسه طالما يسرني .

— لله من كيدك يا امرأة ، لماذا لم تظهر هذه البراعة منك من قبل ؟ فقد ظهرت لي كالحمامة الوديعة الطاهرة .

— من حسن البراعة أن لا تظهر البراعة إلاَّ في حينها يا عزيزي .

— ولماذا جئت وأنت الآن مطلقان ، وصار بيننا حواجز ؟

وأدارت وجهها الى الخزانة وفتحتها ، ورأيتها تأخذ منها محفظة النقود ، فبعت لكي أردعها ، ولكن قوتي خانتني ، وهي ارتدت الى الوراء قائلة : لا تزعج نفسك يا عزيزي ، أنت مريض جداً ، وضعيف القلب ، ثم في سريرك ، ولا شاهد لنا إلاَّ يشتد مرضك .

وأضجعتني في سريري رغم أنفي وألقتني فيه ، وأنا راهي القوى وقالت : لأجل هذا جئت ، لقد أودعت المحفظة هنا وفيها مائة جنيه ، ولكني لا أرى فيها إلاَّ تسعين .

قلت : أجل لقد سحبت الشيك الذي لك بعد فصلك لي من تركتي مائة جنيه لسبب أضطر أن أتسول لأجل النفقة في المستقبل بعد هذا الخراب .

قالت : لا أنفسك في حاجة الآن الى أكثر من العشرة التي مر قتها من المحفظة . أمَّا أنا فإني في حاجة ماسة إليها كلها

ثم أردت صحبة الفقيد في سفرتها
إلى حلبها!

فقلت: ويلك يا سليمة، خاني الله
يا صديقي ويرفيق، يعز عليّ فلس واحد،
فكيف تريدني متكلفاً ولا سند لي والمال
الذي أحدثه هو مالي

قالت: المركة بحمية الرفق بالحيوان
تهتم بشأن راحة الناقة في الحرارة إذا لم تشأ،
فلا تحمل حملاً ... أتقتني الجمعية لكي يأتي
مندوبها إليك ... ثم الآن.

وقطعت عليه الحديث وقرقعت على
السرير راحلة

— لله سليمة الإنسية، لا رحمة ولا شفقة
ولا عطف ولا طاقة.

— لست أجد أعطف من فؤادي على
الديناز يا أخي، ولكن مواطف الحواس، كلي
حنوٌّ على الحيوان، تعرف حسي أنسٌ إذا
رأيته يبدي هوان

قالت: لا يعطف على ولده لأنه منه وله
وقد رأيته ... لنفسه أجل، وأما أنت
فرأيت ... يا أخي هذه الحواس،
... تعطيك ...

... وأصبح
لعواطفه ... تعمل عليه اختلاساً أو
احتيالاً ... التي يقتنصها ويشتري في
تحصيلها ... ثمن عبادته ولاءه. بل لتحق
... ويلذذ
بتمتعه ... الجر حاجته

ولذلك لا يلتذ بها. وأما الفلوس التي
يحصل عليها بالاحتيال والاختلاس، بغير
تعب فهي مقدسة، يحافظ عليها بكل
قوته ويخزنها ويسهر عليها ويحميها ويذوب
أسىً إذا فقد ذرة منها. عرفت الله هل
رأيت ركام الأموال في المطاعم أو في خزائن
الملابس، أو في رياش القصور أو المنازل
لأجل التمتع والتنعم، أم رأيتها في قلاع
المصارف للادخار وللتمتع الثراء. وهل
رأيت المصارف والخزائن والجوانح مكتظة
إلا بمال السحت؟ وهل رأيت ثروة إلا بمال
الحرام؟ وهل رأيت بطراً إلا بالمال المبتز
من طبقة المعوزين. وهل رأيت الصدور
منتفخة إلا بأوصاب المقامرين؟ وهل رأيت
شظف العيش إلا لناس المناجم في الصل
الشاق؟ لولا هؤلاء يا عزيزي لم يكن ثمت
بشر ون مترفون. ولولا بذل العاملين
عرق القربة لما امتلأت بطون المصارف
والخزائن. فالناس يا عزيز وصنفان: منتج
يكدح ويشقى، ومستهلك عيالاً على ذلك
وخاطفٌ منه ويتمتع على ... صبه
... جهداً فيتمتع ... من
ويتمتع ريعهن. فأيهما ... يا
عزيزي أشقى؟ وأما أنا فلا أريد أن
أكون إلا من الصنف الثاني. فلا تنسى
إذا ادخرت وتمتعت على جمالك. ومن
أقرب إليك منك لكي أحدثه بسيرة السخرة؟
ومن أحق رقبة منك لكي أتقن كفنها،

... أن تعلل لكي أعود الى ... الشاطئ ... واتبع ... والغرام ... والشكر ... لك يا حبيبي ثم

فسمعت بها في إبان ارتفاع حرارتي ... فصعد الدم الى رأسي : ألا لعنة الله عليك ... عن كنت في حاجة الى هذه المحاضرة الجهنمية منك ؟ ألا ضمير لك ، ألا قلب حي عندك ؟ ألا عطف روح بعد عشرة ... سنين يا أفعى يا ثعلبة ، يا رتيلاء ؟

فقلبت وقالت : ضمير يا مغفل ؟ أين الضمار يا غبي لقد شرضت في سوق تنازع البقاء فكسدت وبارت ، ولفظت وفسدت ، ... هذه الضمائر التي لا تزال لسذاجتك تؤمل منها خيراً فتأصبحت بؤرة مرا آة ، ونحاتة مخادعات ، ومستنقع نفاقات . وأما قلوب الحب التي تتلهف اليها فقد أصبحت أوكار عمادقات . وأما تلك الأرواح التي تنشد عطفها فقد أصبحت أرواح جن ، أو رياح أثافية تسفر في أجرانه أصنام . فاذا كنت تترقب لحظة من الضمائر فاطلبها من جوّ ... أو إذا كنت تنتظر من القلوب ... فاطلبه من مبذل له قفاك لكي يأكله ... وبعد أن تبيت اخلاصاً الأرواح ... فلا تحبها . أخلص مني لك في كشف هذه الحقائق لبصيرتك بصراحة

فصحت : ألا تباً لك . لقد قلبت لي الكون ظهراً على بطن يا فاجرة ، وأريتني جحيماً أشد عذاباً من عذاب الآخرة .

لقد جاشرا شقية هذه ... النعيم أبعد عني من الملك الأعلى ، وأريتني بمنظار التهويل مصير الجحيم أقرب الى من رحيم الركان . تباً لك لقد سورتني في الكون شراً يا خبيثة فلم يعد يظهر فيه خير . كيف يتقدم العالم على أجنحة الشرور يا شيطانة ؟

قالت ضاحكة هازئة : الخير ؟ أي وهي ، الشر ؟ قد قته ، الخير والشر باعتبار في نسبيان ، فما هو شر لك هو خير لي ، وما هو خير لزيد هو شر لعمرو . وإذا لم يتسن فلان فلا تكتسب فلانة . وإذا لم تتلف أنت فلا أتلف أنا . وإذا لم ينتحب جرجس فاريسن كرهين . وهكذا الدنيا خير وشر ، يتبارزان في معمعان الميدان ، أو يتناوبان دورات الزمان ، كما يتعاقب النيران . فلا تحزن يا عزيزي إذا رأيت شراً مستطيراً هناك فان هناك خيراً مندفقاً . والمهارة في هذه الحياة هي أن تجري الى ناحية الخير قبل أن تدهورك ناحية الشر . اركض الى ناحية الربيع ، قبل أن تهبط في هاوية الخريف . هل ارتويت ؟

— ويحك يا شريرة ... هل ارتوي بهذه السوائل التي لا تستقيم لا في دنيا ولا في آخرة . ولا تنفع في نعيم ، ولا في جحيم

— هذه هي تعاليم هذا العالم يا عزيزي ، هذه شريعة تنازع البقاء التي هي قسطاس هذا العالم . فلا تتعبه نفسك في تغييرها ، لقد سبقك كثيرون الى اصلاح العالم ، فما

أعظم ... العالم أن تعاليم تزيده تعقيداً ، وشرائع تزيده آثاماً ، وفلسفات تزيده دوراً . ولولا الشريعة لم تكن الخطيئة . كم في العالم من رسول ، وكم من نبي ، وكم من مصلح ، ظهر في هذا العالم ؟ فهل قلت الشرور أم كثرت ؟ هل كانت حروب العصور الغابرة أفظع من الحروب الحاضرة ؟ وي . وي . كلما تقدمنا في الزمان ، اشتدت مصائب العمران ، كان الإنسان في عصر الحمار والبغل والحصان ، أقل حوفاً من ويلات الحروب منه في عصر البخار ، والكهرباء ، واللاسلكي ، والطيران . العلم كما تراه الآن يصلح للإنسان كما جُبل الانسان عليه ، فلا تتعب نفسك في أصلاح العمران ، بل اجتهد في اصلاح طبيعة الانسان إن كنت تستطيع ، وإلا فاطلب الخير لنفسك ، من وراء الشر لغيرك ، هذا هو ناموس التنمية العمرانية الأخلاقية . السلام عليك وإني أتلقى ان بقي عندك ما يجذبني إليك .

***

وقبل أن تخرج لندا دخلت دورا بنت عمها فقبلتها وملاكي الخادمة : كيف ظهرت في هذا العالم الثاني ؟

فقبلتها لندا استقبال الأمي لخواله وقالت : أهلاً وسهلاً بالملاك السماوي ، أعطاك رسول حبي هذا المريض المسكين . انه في حاجة الى العطف الى الشفقة ، الى المعونة ... الى الحنان .

فنظرت فيها نظرة ساذجة وقالت :

أشكر لطفك وعطفك يا سيدتي ... جئت ...

... كلا ... لم أعد ... وجاهت دورا ... مسرعة ... لن أعد بحاجة ... شوهد ... ولا لأحد البتة .

... أشعر أن قلبي ... من وجهي ... الرغم من سعيدة ... قالت : سامحت يا عزيزي ، فعيشتك يا روحي .

— من أين جئت يا ملاكي الطاهر ؟

— من العالم الجديد ، جئنا زيارة شرفنا ومشاهدتك .

— لقد حلت البركة ، ولسوف تكون الخاتمة سعيدة لك ، بعد النعيم السماوي .

— لسوف تشفى وتتمتع برحمة ربي لبنان ان شاء الله . من هذه المرأة الخمرة التي كانت عندك ؟

— هي الأمي الرقطاء الملعونة على ... هي الحية الخبيثة المطوقة على زوجة آدم ، هي التلمة او الأفعى الغفرق على آدم ... النسل البشري الرقيق الذي يتسلق ... آدم ، هي ذئب المال المفترس ... النفوس الساطي على فراخ الترواث ، هي ... أذى ، هي الشيطان الرجيم ... ما دخلت في أذنك هذه الليلة ؟

فضحكت دورا وقالت : لا تأثر بها ولا بما قالت ... لقد نبهت من رقدتك هذا

لها ما هي ، لن يكون لها بعد الآن يدٌ في شؤونك ، غداً تعود لك تجارتك ، طب نفساً وقرَّ عيناً .

— من أي سماء هبطتِ ؟ ومن أي عالم ملائكي قدمتِ يا جنة فؤادي ؟ متى جئتِ ؟

— جئت مع أبي منذ شهر ، وسننتظر الى أن تشفى ، ثم نبرح جميعاً الى لبنان لقضاء الصيف هناك .

— أتعنين يا دورا ، إنك تجددين لي حياةً أخرى ، أراك قد أصبحت علة مملوءة البدن ، وازددتِ نضارة وملاحة . فالغبطة من يستحق عطفك ورضاك

— ليس غيرك أحد يستحقها ان كانا شيئاً ذا قيمة .

— آه لا أراني شيئاً ذا قيمة يا عزيزتي : المال فقدته ، الصحة ساءت ، العقل تضعضع ، حتى السمعة تلوثت . لم يعد في شيء يحبب بي يا دورا ، فعلى مَ تضيعين قيمة شبابك وهناءة مستقبلك في جيفة تتكلم ؟

— سه : لا تقل هذا . ضاع كل شيء ، ولكن الشرف باقٍ الى الأبد ، وسقم الجسد ، ولكن طيبة القلب سليمة . والفكر زائل ، ولكن الجوهر حيٌّ خالد . سوف تتعافى وتبني الجسد والعقل والسمعة والمقام ، بناءً أشمخ مما كان . شدَّ حيلك واعتصم بطولك . كيف تشعر الآن ؟ ألست أحسن حالاً .

وجسَّت يدي ونبضي ، فشعرت أن العافية جرت في عروقي ، ودبَّت في بدني ثم قالت : أظن الحمى منخفضة ، والأفضل أن ننقلك الى المستشفى ، سأهتم بالأمر

ودسَّت شيئاً تحت المخدة ومضت على وعد العودة

***

ما ان خرج هذا الملاك الطاهر ، حتى دخلت لندا الشيطان الرجيم ، وقالت مبتسمة بسمة الثعلب : لا ريب أنك أحسن حالاً الآن يا عزيزي ، وقد قاربت الشفاء .

وكانقرد الخاطف دسَّت يدها تحت المخدة واختطفت الفلوس التي وضعتها دورا قبل أن تخرج . وقالت : بكم تمنيت حبيبتك التي كنت تكتم خبرها عني ؟ خمسمائة جنيه فقط ؟ هذا هو ثمنك الذي دفعته عنك ؟ لست أبيعك بأقل من خمسة آلاف . قل لها إنك أغلى من هذا جداً .

وكانت دوتي واهية فلم أستطع أن أقاومها ، فقلت لعنة الله عليكِ من ابليس رجيم . ألا تخافين الله يا شيطانة ، ألا ترهبين نقمة الله القدير يا كافرة ؟

فقهقهت ورفعت يدها بالفلوس التي اختطفتها وقالت : هذا هو الإله الذي أخاف ، هذا هو الإله الذي أعبد ، هذا هو الإله العظيم الذي أحفظه في قدس أقداس خزائني ، هذا هو اللوحان الحجريان اللذان كتب الله فيهما بأصبعه

وصاياه العشر ، ووضعها موسى في تابوت العهد . الى اللقاء يا عزيزي ، سأعود لكي أقبض بقية ثمنك أيها العزيز الغالي . فلن يطيب لك انها لن تظفر بك بأقل من خمسة آلاف جنيه . لن أدعها تهنأ برضاك بأقل من خمسة آلاف

فصفقت بها : تسلك يا لعينة ، كيف تطيب نفسك يا خبيثة وأنت وملسان التراب سيان . ان هذا المال الذي تبهبينه وتدخرينه لايفيدني نفسك في الآخرة يا شقية

فتهتهت وقالت : لا زلت جحشاً ساذجاً ليتك كلب ذكي ، فلعلك تفهم أن نعيم الحياة إنما هو في هذه الدنيا ، وان للآخرة الموهومة طريقاً غير طريق النعيم الدنيوي يسير فيه القاسدون الى تلك الآخرة . وهو ملوء أشواكاً وعثرات وحشرات ونكبات ، فلك أن تسير فيه حتى متى وصلت الى باب الآخرة ورأيته مقفلاً تعود الي فأعطيك مفتاحه . أشتري لك مفتاحه ببضعة فلوس ياغبي .

— ويحك يا تعسة . اذا كنت لا تؤمنين بالآخرة ، أفلا تؤمنين بالشيخوخة والهرم والعجز والموت .

— اله المال العظيم يساعدني ويقويني حينئذ يا جاهل .

— خسئت ، اله المال لا يستطيع أن يرد عنك عذاب المرض وملل العجز ، لا يشفيك من الداء العضال والضجر الطويل . حينئذ يطلبين الراحة في الموت فلا تجدينها ، يا بهيمة

كل هذا المال يقف فوق رأسك يرثيك لأنك اعتصمت به ، وهو لا حول له ولا طول ، تعاديه فيهزأ بك ، تستغيثين به فيسخر من عبادتك له ، انه يبيع سرورك لتعيسة . لكن خوفي عليك طويل

— فقالت بزودر : ان الشهي الذهبي الحنون ، يحميني من الشيخوخة والهرم ، ويشفيني من المرض ، وينقذني من الألم . ان الشهي المحبوب ، يجعل أيامي الطويلة كلها ربيع هناءة وسرور .

— والموت يا تعسة ؟ هل نسيت عزرائيل

— لا . لم أنس عزرائيل . ألتمه بعض مالي ، فيعف عن روحي . لن أموت .

— والقبر يا مغرورة ؟ ماذا تلقينه متى أقبل عليك فاغراً فاه ؟

— ألقمه تابوتاً من ذهب ، مرصع بالحجارة الكريمة .

— والدود يا مسكينة ؟ جائع الى لحمك النتن ، ولا يعيش إلا فيه .

— أدفعه بالحنوط يا فيلسوف .

— إذن أنت والشهك من التراب ، والى التراب تعودان . وفي الآخرة متى وقفت أمام الديان ماذا تقولين ؟

— الآخرة قبل القبر يا جاهل لا بعده ، الثواب والعقاب قبل الموت يا غبي ، الثواب لي والعقاب لك .

— أتنتظرين ثواباً يا فاجرة . أي مبرة فعلت ؟

— لا ريبَ ان ديانيَ مُعِدٌّ لي ثواباً عظيماً يا عزيزي، لأني عبدته عبادة صادقة في قدس أقداس هيكله .

— في أي هيكل عبدته يا شقية .

— في هيكل البنك حيث تكدّس قرابين الأموال . فهو يثيبني النعيم في آخر الحياة ، لأني مجّدته ، وسبحت له وقدّست اسمه .

— تمجدينه بالشهوات الجسدية ، ثم تنتظرين منه نعيماً ؟ لقد غفلت عن نعيم الروح في العالم الثاني .

— تقول الروح ؟ حتماً إنك مغفل ، دع نعيم روح الخيالية لك ، ودع لي نعيم الشهوات الجسدية . ان السهي قد ضمن لي كل مسرّة جسدية حتى الدقيقة الأخيرة من الحياة ، وسينتصب لي تمثالاً من ذهب يُكتب تحته « القديسة لندا »

— عني يا لعينة ، الى هيكل خبثك ودعارتك ، والفظي روحك الى مقر رجس المقرّ .

* * *

تركتني الشيطانة ، والحمى تشويني شيًّا ودماغي تغلي وتفور ، ودماغي يتصدع ويتقلص ، وخيالي كالسينما تستعرض الصور المعقولة وغير المعقولة ، الى أن صحت ذرعاً وقلتُ : إلهي ارحمني ، ربي ارأف بي ، ملاكي الحارس خذ بيدي .

وإذا ملاكي منتصب أمام عيني يقول :

لبيك . ماذا تريد ؟

قلت : أود ان أعلم . هل أنا في يقظة الآن أم في منام ؟

قال تكون فيما تشاء . ان شئتها مناماً فأنت في أضغاث أحلام ، أو يقظة فأنت في حقيقة بلا أوهام .

قلت : منذ هنيهة ، كانت عندي زوجتي الحبيبة في حياتي الثانية ، فهل أبقى في حياتي الثانية أو أعود الى الأولى ؟

قال : هذا أمر يخصك وحدك ولك وحدك الخيار فيه .

قلت : ألقت لندا عليّ دروساً زعزعت وجداني ووجّمت ضميري ورأيت فيها ان الذين يفعلون حسناً في هذه الدنيا يشقون ، والذين يفعلون شرًّا ينجحون ويهنأون . أليس هذا هو الواقع ؟

— بلى هو الواقع الغالب .

— إذن ما سبب هذا الجزاء المعكوس في هذه الدنيا ، النعيم للاشرار ، والجحيم للأبرار ؟

فقال مقهقهاً : سببه أنتم أيها البشر المتحذلقون . سببه نظامكم الذي جعل المال سيّداً لكم ، واضاعاً لطاعتكم ، لولا هذا المال الذي ألّهتموه وصيّرتموه لما كان من لزوم لوصايا الله العشر . هذا المال هو سبب الشرور لأجل الحصول عليه ، وبسببه تكذبون وتسرقون وتقتلون وتزنون وتشهدون زوراً وتخبون بعضكم بعضاً ، به

تستجارن الجحيم ، فأسرع الجحيم اليكم على الأرض . انبذوا المال وعيشوا بالعمل فتنتفي الجرائم، ويتلاشى الشقاء، وتعم السعادة.

قلت : إذا كنت لا أستطيع أن أقلب هذا النظام، فلماذا لا أحذو حذو الأشرار ، لكي أتمتع كما يتمتعون ؟

قال : تعني أنك تريد أن تعيش فوق الشريعة والقانون ، وغيرك يعيش تحت سلطتهما لكي تستغل لنفسك احترام غيرك للحق . تريد أن تطلق العنان لسنة تنازع البقاء .

قلت : لا بأس في ذلك إذا كنت أفوز باللذة .

قال : إذا كنت ضعيفاً تجاه قوي يحرمك القوي تعشك، فبمن تلوذ وبمن تحتمي والى من تلتجيء لكي تدرأ شره عنك ؟ لا ملاذ لك الا القانون ، ومنفذ القانون . فلا غنى عنهما لردع القوي عن الضعيف

قلت : وإذا كان منفذ القانون نفسه مضاماً للحقوق ، فماذا يفعل القانون وهو بلا حول ولا طول ؟

قال : تبقى المسؤلية على عاتقك لأنه نقص منه الاخلاق .

قلت : إذا كانت الأخلاق تسبب لي شقاء فلماذا اتمسك بها ؟ لماذا لا أنهب مع الناهبين، واغتصب مع المغتصبين، وأظلم مع الظالمين ؟ إن بعض الناس استطاعوا أن يبتزوا أموال آخرين . فهم يتمتعون بمال السحت ويتنعمون بمال الحرام، ولا يستطيع القانون أن يردعهم ولا منفذ القانون ان يعاقبهم ، مع أنهم أضعف بدناً ، أو أصغر عقلاً من الذين ابتزوا أموالهم ، بل هم أشر قلباً، وأوسع حيلة . وزوجتي كانت منهم، وخير قدوة لهم .

قال : إن العالم الذي لا احترام فيه للقوانين آئل الى الفوضى والدمار . فأنت حرّ أن تعيش تحت جناح النظام والقانون، أو في عالم الفوضى ، أو أن تتحرر حين تخرج من تحت سلطة القانون ، ولا تجد حامياً آخر لك .

***

ثم تلاشى ملاكي في عالم الغيب، وتلاشى معه وجداني ، فلم أعد أعي لا الحياة الأولى ولا الثانية .

الفصل السابع عشر

أيقظة أم منام ؟

الانسان بلا وجدان جسم يتحرك ، لاعقل ولا روح . الدودة أنبه منه ، الدودة تعرف طريقها وتقصد الى طعامها وتحايد مهالكها . أما الجسم المتحرك بلا عقل فلا يأمن الوقوع في المهلكة .

لا أدري كم يوم مرّ عليّ وأنا أغبى من دودة . أدري أني تنبهت إذ الممرضة تخزني بابرة آلمتني قليلاً . نظرت فيها فأعفتني ابتسامتها . وقلت : أفي يقظة أنا أم في حلم ؟

فقالت : وي . وي . أعدت الى حديث اليقظة والحلم ؟

قلت : أجل اني في شك من وجودي الآن . أصاح أنا إذ أراك فتاة لطيفة حنونا ، أم أنت خيال في مخيلتي حتى إذا صحوت لا أعود أراك ؟

فقهقهت وقالت : أنا كما ترى . لقد هبط حمّاك وشفيت من سرسامك ، وصحوت من هذيانك ، وقلت عذرتك فاطمئن .

— ترى في أي الحياتين أنا الآن ، الأولى أم الثانية ؟

قالت : هل عدت تخرّف وتهرف . حاذر فقد سمعت أمس همساً بأنهم سينقلونك الى مستشفى الأمراض العقلية إذا بقيت تهذي وتخلط في الكلام . أنت الآن تدخل في دور النقاهة . فاربأ بنفسك .

وخرجت مقفلة الباب فقلت : رحماك ربي . عطفك ملاكي .

***

وما أن تمرهت حتى انتصب أمامي ملاكي ، فاذا هو الآن مهوب الروعة ، جليل السحنة . وقال هل ارعويت ؟

قلت : اكتنفتني الحيرة يا سيدي ، إني في بلبال دائم ، لم يبق لي مطمع في هذه الحياة المرّة .

— تعني الحياة الثانية التي طلبتها ، أم الأولى التي مقتها .

— كل منهما أمرّ من الأخرى . أود أن أخلص من تداولها اياي .

— هل صحّ عزمك على الرحيل الى الأبدية ؟

— أظن هناك حياة هادئة . أليس كذلك ؟

— تتوقف على يقينك وهدوء نفسك . لا أضمن لك شيئاً هناك .

— هل يوجد مصير آخر غير تلك الأبدية

— لا يمكنني أن أفيدك شيئاً بهذا الصدد ،

ليس في طوق عقلك أن يفهم شيئاً عما هو وراء هذا العالم قبل أن تخرج منه ، متى خرجت من هذا تعلم ما هنالك .

— إذن ما وراء هذا العالم مجهول ، أفلا يجزع الانسان من المعلوم الى المجهول ؟

— إذن ، تخاف أن ترحل من هذا العالم الوقتي الى العالم الأبدي .

— إذا كنت قد مللت هذا العالم الزمني الذي له نهاية ، أفلا أجزع من العالم الأبدي الذي لا نهاية له ؟ لله ما أرهب الأبد الممل . ألا يمكن أن نعلم ما هذا بعد الأبد ؟

— ليس للأبد بعد .

— أحقيق أن في الأبد نعيماً .

— خذ نعيمك معك من هنا إذا شئت

— إذن كان لي نعيم هنا فلأبقَ هنا إذن .

— هنا نعيمك ينقضي ، ورضاك لا يزول إن استطعت أن تصحبه معك .

— في الأمر شك إذن ؟

— نعم الأمر أمرك .

— أظنه خير لي أن أبقى هنا أتمتع بنعيمي لأني أخاف من رهبة العالم المجهول ، ولا أضمن أني آخذ معي نعيماً من هنا الى هنالك .

— منذ هنيهة كنت تقول : انك تود ان تتخلص من الحياة هنا ، فما بك تعدل عن التخلص منها .

— النعمى عزيزة يا سيدي الحياة محبوبة يا مولاي .

— منذ هنيهة كنت تقول انها مرّة ، فهل عدت تستلذها ؟

— أؤمل أن أجد حلاوة فيما بقي منها

— حسن اذاً تعتمد على الأمل .

— آه . ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .

— وإذن تكتفي بلذة الأمل الى أن ينقضي العمر .

— ويلاه ! ألا يمكن تحقيق أمل قبل انقضاء العمر ؟

— هذا يتوقف عليك . فقد نلت من الحياة عمرين واختبارين . فاذا لم تستفد منهما في تحقيق آمالك ، فاخفاقك يكون ذنبين تعاقب عليهما عقابين .

— أحقٌ هذا ؟

— وهبك نجحت وعشت أحقٌ ان تكافأ بثوابين ؟ لقد عشت حياتين ، ولكل حياة ثوابها وعقابها .

— إني قانع بحياة واحدة ، فأيهما تنعمني لتتمة العمر ؟

— أنت تختار لا أنا ، ولك ان تتقلب بين الحياتين كما تشاء .

— لا . لا . رحماك . إن هذا التقلب أقضّ مضجعي .

— عجباً : من يحمل على هذا الخيار غيرك — ان يعيش الانسان حياتين يتنقل بينهما بمطلق حريته ؟

— حياتين ؟ الواحدة حقيقية والأخرى وهمية ، وأنا مضطجع العقل بينهما .

— أنت طلبت حياة أخرى فأعطيت

— يستحيل أن تكون احداهما إلا وهماً أو حلماً . وقد أصبحت لا أدري أيتهما الحقيقية ، وأيتهما الوهمية . فكفى ضعضعة العقل بينهما يا سيدي الملاك ، أرجو ان ترشدني الى الحقيقية منهما .

— الحياة التي تستطيعها هي الحقيقية .

— ويلاه ! لا أزال ضالاً ، ربك اهدني

— أعطيت عقلاً كاملاً . فاهتدِ . لقد انتهت مهمتي ، اني مودعك الى الأبد .

وتلاشى من أمام عيني فيما أنا استغيث به

***

يقول الكاتب : وقد عدته غير مرة في مستشفى الأمراض العقلية ، وكان كل مرة يسألني أفي حلم أنا الآن ، أم في يقظة؟

فأوعزت الى الطبيب أن يبذل جهده الفني في اقناعه بأنه في يقظة ، لكي يزول سبب وجوده في المستشفى

وعلى الرغم من خروجه من المستشفى سليماً معافىً ، وفي أحسن حال ، ما زال كلما رآني يسألني : « أحقيقة » اني في يقظة أم في حلم؟

للمؤلف

مؤلفات علمية

هندسة الكون حسب نامبوس النسبية Relativity
فلسفة الفلاسفة أو جاذبية نيوتن Newton's Gravitation
عالم الذرة أو الطاقة الذرية Atomic Energy
فلسفة الوجود Ontology
علم أدب النفس Ethics
علم الاجتماع (جزآن) Sosctiology

مؤلفات اجتماعية واجتماعية

الاشتراكية
قلب والزواج
ذكرى رأس خلقهم
مناهج الحياة
شرب أوربا (مترجمة)
تاريخ أساس الترائع الانكليزية (مترجمة)

روايات الاتحاد العربي

فرعون العرب عند الترك
جنية أحواك السيد
وداعاً أيها الشرق

روايات مختلفة

المقدس (مقتطفة)
ثورة في جهنم
حواء الجديدة (طبعة ثالثة)
آدم الجديد
الصديق المجهول
الحقيبة الزرقاء
جبل سين
اسرار مصر
العالم الجديد
نبية لبنان
حركات السيدات في الانتخابات أو اي هو ابي
ثورة مواطف
من هرابي الى زغلول
فاتنة الامبراطور
زغلولات مصر
أين الكنز يا شرلوك هولمز (مترجمة)
الامبراطورة ثيودورة (نشرت في هلال يناير سنة ١٩٤٤)
دولة سيدات في مملكة نساء
ليت الشباب يعود

روايات نشرت في الطائف المصورة

المنطاد المنتقم
زغلول مصر
زغاليل مصر
بنات آل عثمان
تحت راية مصطفى كامل
فتاة الاقاصيل والبرام اليونانيين

روايات مترجمة نشرت في مسامرات الشعب

حب في ثورة (الاصل لديماس)
عقد الملكة (جزآن) »
الزهرة الحمراء (الاصل لبارونة أورزي)
الحرب الجوية
القرب (بتصرف)
زوجة الأمير

كتب للمؤلف معدة للطبع

الديمقراطية — مسيرها ومصيرها
اسحق نيوتن
العزلة في رأس الجبل
(مناقشات أخلاقية)

خالد بن الوليد : تمثيلية أو رواية
الحب الذهبي: « « «
الكنز القيصري أو دوقة في مصر : رواية
سر الكنز : رواية

من مؤلفات المؤلف للبيع

في ادارة المقتطف

ص

٤٠ هندسة الكون على سنة النسبية
٢٠ عالم الذرة — الطاقة الذرية
١٢ فلسفة التفاحة أو جاذبية نيوتن
٢٠ ليت الشباب يعود (أروع رواية)
٢٥ فلسفة الوجود
٢٠ دولة سيدات في مملكة نساء

أسرة المقتطف ترفع الى عرش

جلالة الملك فاروق المفدى

التهنئة خالصة بعيد جلوس جلالته السعيد . عاش الملك